مغامرات روبنسون في البرك والليث ضمن رحلته حول العالم (1928–1931)

ترجمة الشريف عبدالعزيز بن عبدالله آل عجلان القاسمي

مقدمة

نقدم في هذا الفصل القصير ترجمة للجزء المتعلق بـ البرك والليث من رحلات ويليام ألبرت روبنسون في البحر الأحمر. يسرد الكتاب مغامرات روبنسون في هذه المنطقة خلال رحلته البحرية التي بدأت في 23 يونيو 1928 من نيويورك، بما في ذلك:

القبض عليه من قبل العرب في البرك.

تفاعله مع السكان المحليين وأساليب التفاوض والعيش تحت الحراسة.

صعوبات الملاحة والإمدادات في البرك والمنطقة المحيطة بالليث.

خطة الهروب الأولى وقصته مع عرب الليث.

وصفه للمدن الساحلية والموانئ وبعض العادات المحلية في البرك والليث.

تكتسب ملاحظاته أهمية خاصة، إذ تمثل مصدرًا تاريخيًا لفهم طبيعة الحياة البحرية والتجارية والاجتماعية في ساحل البحر الأحمر خلال أوائل القرن العشرين (1928-1931)، وتوفر رؤية حية عن المدن، الموانئ، وعادات السكان المحليين، ما يجعلها وثيقة قيمة للباحثين والمهتمين بتاريخ مدن ساحل البحر الأحمر

—

عن المؤلف

ويليام ألبرت روبنسون (William Albert Robinson) هو مؤلف ومستكشف أمريكي اشتهر بروحه المغامرة وحبه للاستكشاف. بالرغم من محدودية موارده المالية، قرر تحقيق حلمه بالإبحار حول العالم على متن قارب صغير من تصميمه، مؤمنًا بأن القوارب الصغيرة المصممة والمجهزة بشكل جيد يمكنها الإبحار بأمان في أي مكان إذا أُحسن التعامل معها.

بدأ روبنسون رحلته في 23 يونيو 1928 من نيويورك على متن قاربه الصغير Svaap، واستمرت الرحلة ثلاث سنوات ونصف حتى أوائل عام 1932. خلال هذه المدة، اكتشف جزرًا نائية، وتقابل مع شعوب وثقافات غريبة، وواجه مخاطر البحر من أعاصير وشعاب مرجانية وقراصنة، بما في ذلك مغامراته الشهيرة في البرك والليث على ساحل البحر الأحمر. لم يكتف روبنسون بالمغامرة، بل وثق رحلته كتابيًا وفنيًا، جامعًا بين القدرة الأدبية والرسم لتصوير ما شاهده وعايشه، مقدمًا بذلك وثيقة قيمة للمغامرات البحرية والسكان المحليين في المناطق التي زارها.

بداية الترجمة من الصفحة 332

تابعنا الإبحار بمحاذاة الساحل، متجاوزين مدينة المخا المشهورة بقهوةٍ تحمل اسمها، وسرنا على طول سواحل اليمن حتى بلغنا جزيرة كمران، حيث دخلنا بين الشعاب المرجانية.

قدّم لي الكابتن ويكهام، وهو الإداري هناك، ما توفر لديه من معلوماتٍ محلية عن الساحل، محذرًا إياي على وجه الخصوص من الاقتراب من منطقة اللُّحيّة التي تبعد يوم إبحارٍ عن كمران. قال لي إننا سنقع في المتاعب حتمًا مع العرب هناك، أما ما وراءها، فلا علم له به.

أما دليل الملاحة الخاص بتلك المنطقة فكان أقل من عديم الفائدة؛ إذ يذكر مرارًا وتكرارًا «شجيرة بارزة» كعلامةٍ يُستدلّ بها على جزيرةٍ أو ميناء. وحين تُتَّخذ الشجيرات معالمَ مميّزةً في كتابٍ بحري، فذلك لا يبعث على الثقة بجغرافية المكان!

تقدّمنا ببطءٍ عدة أيام بعد مغادرة كمران، نتحسس طريقنا وسط ضبابٍ رمليٍّ[1] مزعج قادمٍ من الصحراء، فلا نكاد نرى الشعاب أو الجزر الرملية الصغيرة إلا حين نكون على وشك الاصطدام بها. وفي الليالي، كنّا نلقي المراسي في خلجانٍ مجهولةٍ على الخرائط، أو وراء الشعاب البحرية البعيدة، متجنّبين القرى القليلة التي نلمحها لما يُعرف عن سكّانها من سمعةٍ مخيفة.

وكان نَفَسُ الصحراء الحارق يتناوب مع رياح البحر المشبعة بالرطوبة؛ وكلاهما كان كلفح نارٍ يخرج من باب فرنٍ متّقد. حتى في الليل، لم يكن مقياس الحرارة ينخفض عن خمسٍ وتسعين درجة فهرنهايت أو أكثر. والغريب أن إيتيرا[2] وهو ابن المناطق الاستوائية، كان يعاني الحرّ أكثر مني، فلا يكفّ عن الشكوى. لقد كان ذلك بلدًا قاحلًا محترق الملامح، تترامى فيه كثبان الرمل القاحلة بلا نهاية.

---

[1] رياح محمَّلة تأتي من الخَبَت قبالة الساحل، ويُقال لها محليًا اسم نافج أو نفج

[2] إيتيرا غواص لؤلؤ من هاييتي، انضم إليه في أثناء إقامته هناك وساهم في مساعدته خلال جزء من رحلته

روبنسون في قبضة رجال البرك

وفي أحد الأيام، هبط مؤشّر الضغط الجوي فجأة، وهبّت من الجنوب عاصفةٌ عاتية. ومع دهوٍ عربيٍّ[3] ضخمٍ وبطيء الحركة، اندفعنا على طول الساحل نبحث عن ملجأ. كنت أخطّط لبلوغ مرسى صغير يُسمّى خور نهود كما ورد في الخريطة. لكن قبل أن نصل إليه، انعطفت سفينة الدهو عبر فتحةٍ أخرى في الشعاب. وبما أنني كنت واثقًا أنهم
وبما أنّني افترضت أن لديهم معرفة محليّة تمكّنهم من اختيار أفضل ملجأ من العاصفة، تبعتهم بحذرٍ إلى حوضٍ صغير تحيط به الشعاب المرجانية من كل جانب، كان آمنًا ومغلقًا كأنه ملاذٌ خفيّ.

وبعد ساعةٍ واحدة، أصبحنا أسرى — لا بأيدي العرب السمر الذين كانوا على ظهر الدهو، بل في قبضة الأمير الأبيض الثياب لبلدة البِرك،[4] تلك القرية البدوية العجيبة التي تتدلّى أكواخها المخروطية المصنوعة من الشجيرات، وبيوتها الحجرية القليلة، عند سفحٍ قاحلٍ محروق لا يظلّله سوى بضع نخلاتٍ متفرّقة.

كنت قد أدركت ما سيحدث حين رأيت قاربًا صغيرًا ينطلق من الشاطئ يحمل رجالًا مدجّجين بالسلاح، غير أننا كنا محاصَرين. وحتى لو كان لدينا متسعٌ من الوقت للهرب، لما استطعنا، لأن سفينة الدهو كانت قد تحرّكت إلى موقعٍ يسدّ الممرّ الضيّق تمامًا. كانت المقاومة ضربًا من العبث — النسبة مئةٌ إلى واحد ضدّنا.

---

[3] سنبوك عربي
[4] الامير الحسن بن علي بن عبده الهلالي

صعد الرجال إلى السفينة وأشاروا إليّ بالإيماءات أن الأمير يرغب في رؤيتي. أخذت معي بعض أوراق السفينة وتوجّهت معهم، لا أدري إن كنت ذاهبًا إلى استقبالٍ رسميٍّ أم إلى جنازتي. ولم أرَ تلك الأوراق بعد ذلك أبدًا.

تسلّقنا الطريق إلى القرية، وسرنا عبر أزقّتها الفوضوية حتى بلغنا قصر الأمير المحصّن. دخلنا من فتحةٍ في جداره، وعبرنا باحته في صمتٍ ثقيل، وكانت مكتظّة ببدوٍ يحدّقون بوجوهٍ غريبةٍ متصلّبة. ثم صعدنا درجًا مظلمًا إلى شرفةٍ محاطةٍ بجدارٍ عالٍ، حيث خلع المرافقون نعالهم قبل الدخول.

دخلنا غرفةً مربّعة صغيرة، نوافذها محروسة بقضبانٍ حديدية، ومقاعدها مغطّاة ببُسطٍ فارسيةٍ على امتداد الجدران الأربعة. لم يكن فيها من الأثاث سوى طاولةٍ عارية، وكتابين، وسوطٍ بمقبضٍ فضيّ.

وفي الجهة المقابلة، في تجويفٍ بالجدار، جلس الأمير متربّعًا، ضخم الجثة، تغمره عباءاته الفضفاضة. وحوله، على امتداد الجدران، جلس أربعةٌ وعشرون شيخًا أدنى مرتبةً، يرتدون أزياء متنوّعة ذات ألوانٍ زاهية.

قُدِّمت إليه، وجُلست في صمتٍ مهيبٍ تقطّره الرطوبة. على جانبي الباب وقف حارسان مسلّحان ببنادق.
ومن خلال مترجمٍ عاجزٍ لا يعرف أكثر من اثنتي عشرة كلمة فرنسية، حاولت أن ألقي خطابًا مليئًا بالأكاذيب الودّية، أعرب فيه عن «سروري» بوجودي هناك. وبعد تبادلٍ طويلٍ من المجاملات الغامضة، أُفهمت أخيرًا أنني أُحتجز كرهينة مقابل فدية. كتبت رسالة بخط يدي أوضحت فيها وضعي، ووقّعتها، ثم أرسلوها إلى مكانٍ ما عبر رسولٍ من البدو على ظهر جمل، ولم أعلم قطّ إلى أين انتهت بها الرحلة.
وإن قُدّر لي أن أُختطف مرةً أخرى، فآمل أن أقع في أيدٍ مضيافة كهذه. وبعد أن شكوت من قسوة الإقامة على اليابسة، أُذن لي أخيرًا أن أعيش على متن سفاب[5] تحت الحراسة. ولمّا بعثتُ أُخبر بأن طول بقائنا قد أدى إلى نقصٍ في المؤن،

[5] سفينة المؤلف

بادر الأمير على الفور إلى إرسال قطيعٍ كاملٍ من الدجاج إلى السفينة، حتى غدت سفاب أشبه بحظيرةٍ عائمة.
كنت أسيرًا مثاليًّا، أتصرف كما لو كنت أستمتع بكل ما يجري، لأخدعهم فيأمنوا جانبي. ومع مرور الأيام بدأ الحراس يملّون الإقامة على ظهر السفينة الضيقة، فسهُل عليّ أن أرشوهم ليكتفوا بمراقبتنا من سفينة الدهو القريبة.
كنت غارقًا في التفكير بخططٍ للهروب، لكن لم يكن بالإمكان تنفيذ أيٍّ منها ما دامت سفينة الدهو تسدّ الممر الوحيد إلى البحر. ومع ذلك، كانت لدينا ورقتان رابحتان غفل عنهما العرب لأنهم لم يفتّشوا سفاب: ففي خزانةٍ تحت سريري كانت ترقد عدة بنادق مع ذخيرةٍ وفيرة، وتحت جسر القيادة كان يرقد جسمٌ غامض مغطّى بقماشٍ مشمّع — المحرّك الخفي الذي لم يشكّ أحدٌ بوجوده. ولو خطر ببالهم أننا نملك قوة دفعٍ ميكانيكية، لتغيّر كل شيء.
جاءت فرصتنا عندما هدأت الرياح الجنوبية وهبّت رياحٌ شمالية غربية، مما اضطرّ الجميع إلى تغيير مواقع المراسي لضيق الحوض الصغير الذي كنا فيه، إذ لم يكن فيه متّسع لتأرجح السفن بحرية. ساعدنا رجال الدهو في تحريك مرساتهم أولًا، متأكدين أن توضع في أماكن لا تعيق خطّتنا المرسومة. ثم، بحجة حماية سفاب من الارتطام بالصخور أثناء رفع مرساتها الثقيلة وسلسلتها، وضعنا مرساةً خفيفة مربوطة بحبلٍ من المانيلا قرب الممر — في الموضع الأمثل لهروبٍ سريع. وبعد أن ألقينا السفينة إلى الخلف على ذلك الحبل، رفعنا المرساة الثقيلة حتى أصبحت خارج الماء تمامًا وجاهزة للتحرك.
كان العرب على ظهر الدهو، على بُعد خمسة عشر ياردة فقط، يراقبون باهتمامٍ كيف يستطيع رجلان تنفيذ مناوراتٍ تحتاج عادةً إلى نصف دزينةٍ من البحارة.

كنت أراقب وجوههم بطرف عيني؛ لم يظهر عليهم أدنى أثرٍ للريبة.

همستُ لإيتيرا بالفرنسية:
«الوقت الآن!»

وبلا عجلة، وكأننا نتحرك فقط لوضع مرساتنا الكبيرة، بدأنا نسحب الحبل المصنوع من المانيلا. أخذت سفاب تدور ببطء حتى أصبحت تتجه مباشرة نحو

مخرج الممر البحري. وعندما اقتربنا من موقع المرساة الخفيفة، نزلت إلى الأسفل وأخرجت البنادق إلى السطح، أخفيها وراء المقصورة.

عندها بدأ كل شيء يحدث بسرعة. فالمحرّك الذي كان مُعَدًّا مسبقًا انطلق بزئيرٍ مدوٍّ — بأقصى سرعةٍ إلى الأمام. قفزت إلى السطح، أمسكت ببندقيتين، وأطلقت طلقة أو اثنتين فوق سطح سفينة الدهو. في لحظةٍ، اختفى كل عربيٍّ من على ظهرها، يحتمي خلف الحواجز الخشبية، وسط فوضى من الصياح والارتباك. التقط إيتيرا المرساة الصغيرة ونحن ننزلق مبتعدين، نكتسب سرعةً لحظةً بعد أخرى. وبعد ثوانٍ كنا نعبر بين فكيّ الشعاب المرجانية الضيقين اللذين شكّلا الممر. وبينما أبقينا سفينة الدهو بيننا وبين القرية درعًا واقيًا، واصلنا التقدّم نحو عرض البحر.

تعالت على الشاطئ ضوضاء عظيمة، وترددت طلقات نارية عشوائية، فيما هرع الشيوخ العرب بعباءاتهم الفضفاضة بين الحشود الواقفة على المنحدرات الصخرية. لكن الرياح الشمالية الغربية حالت دون تمكّن السفن الشراعية من دخول الممر، فتعذّر عليهم ملاحقتنا. ولم نكن لنخشاهم على أي حال، إذ كانت بنادقنا الحديثة كفيلة بإبقائهم خارج مدى نيران بنادقهم القديمة الصدئة.

ومع ذلك، لم نكن بعدُ في مأمنٍ تام؛ فقد تحوّلت الشعاب المرجانية التي كانت تحمينا إلى ما يشبه السجن، إذ حبستنا في شريطٍ ضيقٍ من المياه الضحلة بمحاذاة هذا الساحل الموبوء بالقراصنة. كان أمامنا أكثر من مئة ميلٍ من هذا الممر المتشابك قبل أن نبلغ عرض البحر، وحتى حينها، كنا بحاجةٍ ماسّة إلى التزوّد بالمؤن من مكانٍ ما. صحيح أن لدينا قطيعًا صغيرًا من الدجاج، لكنه لم يكن كافيًا. وكان ضميري يؤنّبني بشأن تلك الدجاجات، إذ شعرت أن الفرار من أصحابها ثم التهامها يُعدّ إهانةً مضاعفة.
كنت أشعر بوخزٍ في ضميري لأنني لم أكتفِ بالهرب من صديقي الأمير، بل حملتُ معي أيضًا نحو اثنتي عشرة من أفضل دجاجاته. ولو كان لديّ وقتٌ كافٍ، لعدتُها إليه قبل أن أغادر.

روبنسون في الليث

كان المكان الوحيد الذي يمكن أن نحصل فيه على بعض التموين قبل الوصول إلى جدة هو الليث، الواقعة على بُعد مئة ميلٍ إلى الشمال. غير أن دليل الملاحة كان متثبِّطًا للعزيمة بشأنها، إذ يقول عن سكانها:

> «في الأوقات العادية، تُضاف القرصنة والإعتداء على الذين يمرّون في طريقهم إلى مكة إلى وسائل عيشهم المعتادة».[6]

ولم يوضّح الدليل ما هي هذه «الوسائل المعتادة»، لكني أظنها لا تخلو من أعمالٍ مخيفة. على أيّ حال، كانت أدلّة الملاحة والخرائط دائمًا ما تبالغ في التحذير؛ فكم من جزيرةٍ في جنوب المحيط الهادئ وُصفت بأنها «معادية»، بينما يسكنها أناسٌ من أطيب من يمكن أن تلتقيهم. لذلك لم آخذ التحذير على محمل الجدّ. فقرصنة أو لا قرصنة، كنا بحاجةٍ إلى الطعام.

في مساء أحد الأيام، وبعد ثلاثة أيامٍ من الإبحار المرهق للأعصاب بين الممرات الضيقة، وصلنا أخيرًا إلى المرسى الداخلي لبلدة الليث. وكان المشهد مخيّبًا للآمال — لم تكن سوى مستوطنةٍ صغيرةٍ من بيوت الطين البائسة، لا المدينة المزدحمة التي كنا نتصوّرها. وكما حدث في خور البرك، اندفع من الشاطئ فورًا قاربٌ يحمل رجالًا عربًا ذوي ملامح شرسة، حاولوا بخداعٍ ومراوغةٍ أن يُنزلوني إلى البر. لكنني هذه المرة لم أكن بالسذاجة ذاتها، وبعد محاولاتٍ فاشلة تركونا وشأننا. كنا مرهقين، فتمدّدنا على سطح السفينة لننام.

---

[6] اعتمد المؤلف على الدليل الأمريكي للبحر الأحمر وخليج عدن . واشنطن 1920م

كانت ساعة السفينة تدقّ ثماني دقات منتصف الليل عندما أفقت فزعًا، وظننت للحظةٍ أنني أعيش كابوسًا، إذ وجدت نفسي أحدّق في أفواه بنادق مصوَّبة نحوي. كان مصباح زيتٍ مدخّنًا مرفوعًا عاليًا بيد رجلٍ ضخمٍ أسود اللحية، أعور العين. وكان ضوءه المتراقص يُلقي بظلالٍ على أكثر عصابةٍ وحشيةٍ يمكن أن يتخيّلها المرء. كانوا أكثر من اثني عشر رجلًا، بينما كان مزيدٌ منهم ينتظرون في القارب الراسي إلى جانب السفينة. وكل واحدٍ منهم كان ترسانةً متنقّلة: يحمل بندقيةً ومسدسًا وسكينًا أو سيفًا — أو كليهما معًا.
لم يكن هناك مجالٌ للمماطلة مع هذه العصابة. حاولتُ أن أتعامل مع الموقف بروحٍ من الدعابة، لكنني أدركتُ فورًا أن هؤلاء ليسوا الأسرى المهذّبين الذين واجهتهم في خور البرك. فقد غرز أحدهم فوهة بندقيته في ضلوعي وساقوني دون أن يسمحوا لي حتى بارتداء ملابسي، رغم أنني تمكّنت من ارتداء رداء الاستحمام على عجل.

ترك اثنان منهم حراسة إيتيرا، الذي شُلّ لسانه من شدّة الخوف. وبينما كانوا يجدّفون بي مبتعدين، صرخت إليه بأوامر اعتقدتُ أنها ستكون الأخيرة في حياتي — أن يحاول الفرار على أي دهو (سفينة شراعية) عابرة، وأن يروي قصتنا لأول أوروبي يصادفه. كان في الأمر شيءٌ من الدراما المأساوية، وشعرتُ كأنني أعيش مشهدًا سينمائيًا بطله الأخير. كنت واثقًا أنني لن أرى سفاب ثانيةً قط، وواصلتُ التحديق فيها حتى تلاشت في ظلام الليل. ظننتُ أن هذه هي النهاية.

كان في انتظارنا على الشاطئ ثلاثة خيولٍ عربية أصيلة، عارية من السروج. لطالما حلمتُ بأن أمتطي جوادًا عربيًا تحت نجوم آسيا، لكن لم يخطر ببالي قط أن تكون تلك التجربة على هذا النحو — عاري الظهر، مقيد الإرادة، منقادًا عبر رمال الصحراء المتموّجة في جوف الليل. أمامي كان يمتطي الزعيم جواده، وعباءته البيضاء ترفرف حول رأسه كجناحي شبح، وخلفي مباشرةً الحارس، يلوّح ببندقيته الفرنسية القديمة مصوّبًا فوهتها نحو ظهري. كنت أتوقّع أن يطلق النار في أية لحظة، والغريب أنني شعرتُ بسكونٍ تام، أتساءل فقط عن الإحساس الذي سيغمرني عندما تخترق الرصاصة جسدي.

كنت مقتنعًا أنهم يسوقونني إلى أعماق الصحراء ليقتلوني هناك، حيث لن يُعثر على أي أثرٍ لي. ثم سيعودون ليغرقوا المسكينة سفاب في تلك الليلة، عرفت حقًّا ما الذي يشعر به رجلٌ محكومٌ عليه بالإعدام وهو يُساق إلى المشنقة.

غير أن أكثر ما كان يزعجني هو فكرة أن أحدًا لن يعرف ما حدث لي. كنت أتصوّر الناس يقولون في بلادي:

> «قلنا له ذلك من قبل، القارب صغير جدًا. كانت مغامرةً طائشة أن يحاول الإبحار حول العالم في مثل هذا القارب**!**»

وقد آلمني أن تذهب رحلتي سُدى، دون أن أُثبت أن الأمر لم يكن تهوّرًا، بل تحديًا ممكنًا.

يمكن لأي قاربٍ صغيرٍ مصمَّمٍ ومبنيٍّ جيدًا أن يذهب إلى أي مكان بأمانٍ إذا أُحسن التعامل معه.

واصلنا الاندفاع عبر الكثبان الرملية المتماوجة في الصحراء. كانت الرياح الحارة خانقة، والنجوم تلمع فوقنا في سماءٍ صافية. كان ردائي الطويل يرفرف بشكلٍ مضحكٍ في الهواء، وبدأتُ أشعر بألمٍ شديد من شدّة الارتجاج، إذ لم أكن معتادًا على هذا النوع العنيف من الحركة، ناهيك عن أنني لم أركب حصانًا بلا سرجٍ أو ركابٍ من قبل. كنت أتوقّف بين الحين والآخر متمنّيًا أن نصل أخيرًا إلى وجهتنا ـــ أيًّا كانت.

وبعد مسافةٍ طويلة، بلغنا شجرةً وحيدةً قزمة الشكل، فتوقّفنا عندها. أطلق الحارس صرخةً غريبة، فجاءه جوابٌ من مكانٍ ما في الظلام. خفق قلبي بعنف، إذ ظننتُ أن هذا هو الموضع الذي سيُنفّذ فيه الحكم. لكن سرعان ما ظهر رجل،

تفقّدنا للحظة، ثم واصلنا السير. بعد ذلك وصلنا إلى واحةٍ فيها مستوطنةٌ صغيرة. وعلى ربوةٍ تطلّ على المكان بصرامة، ارتفع حصنٌ منخفضٌ مربع الشكل ذو أبراجٍ مستديرةٍ في زواياه الأربع.

وبعد دقائق معدودة، وجدت نفسي أتفحّص وضعي الجديد من داخل زنزانةٍ خانقةٍ منخفضة السقف في ذلك الحصن. لم يكن في الجدران نافذةٌ ولا فتحة من أي نوع، سوى بابٍ حديديٍ ثقيلٍ مُقضّى بالقضبان، دخلتُ منه. لم يكن في الغرفة أي شيءٍ على الإطلاق، لا أثاث ولا فراش، سوى تجويفٍ منحوتٍ في الجدار الحجري على نحوٍ عميقٍ يكفي لأن يُستخدم كرفٍّ للنوم. كانت بضع خيوطٍ من الضوء تتسلّل عبر ثقبٍ صغيرٍ في الباب، مصدرها مصباحٌ معلّقٌ في الممرّ الخارجي. لم يكن هناك أي احتمالٍ للهروب.

في هذا الوضع اليائس ذبُلتُ أيامي، حتى خُيّل إليّ أن أسبوعًا كاملًا قد مرّ، وأنا غير قادرٍ على التمييز بين الليل والنهار. من حينٍ إلى آخر، كانت تُدفَع إليّ قطعةٌ قاسية من خبزٍ غريب المذاق مع ماءٍ عفنٍ كريه الرائحة. وفي النهاية، جاء أميرٌ أو شيخٌ ذو شأنٍ[7] رفيع وتفقّدني. تحدّثنا طويلًا، لكن بلا مترجم، فلم أفهم شيئًا من حديثه. والواقع أنني، حتى يومنا هذا، لم أفهم مغزى ما حدث كلّه. لم يحاول أحدٌ أن يستولي على سفاب، ولم تُطرح أي مطالب واضحة...

(ويبدو أن ما جرى لي لم يكن عملية سطوٍ أو انتقامٍ فحسب، بل أمرٌ أكثر غموضًا لا يزال يلفّه السرّ).

لم يفتّش أحدٌ السفينة مطلقًا، ولم تُبذَل أي محاولةٍ لطلب فدية. أعتقد أنهم تراجعوا عن نواياهم فجأةً، لسببٍ ما لا أعلمه.

وبصراحة، شعرتُ بخيبة أملٍ طفيفة لأن الأمر انتهى بطريقةٍ باهتةٍ بعد أن بدأ كما لو كان فصلًا من ألف ليلةٍ وليلة. فقد خمدت المغامرة تدريجيًا حتى انتهت بلا ذروةٍ ولا مأساة.

---

[7] الأمير بن شهيم

سمحوا لي بالعودة إلى سفاب تحت الحراسة، بعد أن ادّعيتُ — بالإشارات — أن لديّ أوراقًا دبلوماسية بالغة الأهمية. وهناك، وبسرعةٍ مذهلة، أعددتُ بعضًا من أكثر الوثائق رهبةً وإبهارًا يمكن أن يراها إنسان، مستخدمًا بعض شهادات الصحة القديمة، وكثيرًا من الشرائط الحمراء والشمع المختوم. لم يكن عندي ختمٌ رسمي، فاستعنتُ بسدّادة زجاجية مزخرفة من زجاجة عطر كوتي (Coty) القديمة، فتركت على الشمع نقشًا أنيقًا بدا وكأنه شعارٌ ملكي. أثارت هذه الأوراق إعجاب الأمير الشديد حتى أنه لم يُعدني إلى الزنزانة، بل قرّر أن أظلّ محتجزًا في الميناء إلى أجلٍ غير مسمّى — دون أن أفهم السبب.

سرعان ما اكتشفتُ أن رئيس الحرس يكنّ كراهيةً شديدة للأمير. وببعض الرشاوى الذكية، أصبح حليفي. تمكّنا بفضل ذلك من إيصال المؤن إلى السفينة خلسةً. كانت ترسو بجانبنا سفينة عربية كبيرة (دهو)، طاقمها خليطٌ من قراصنةٍ بين الحين والآخر وتجار رقيقٍ متخفّين. وكان قبطانها — رجلًا عربيًا ضخم الجثة ذا طابعٍ مرح — لا يكفّ عن التسلّل إلى كل ركنٍ من أركان سفاب، يتفحّصها بدهشة طفلٍ يكتشف لعبةً جديدة. أهديته بعض الخرائط التي أسعدته غاية السعادة، فتوثّقت بيننا صداقة غريبة — صداقة بين رحّالةٍ مغامرٍ وقرصانٍ[8] عربيٍ مرح.

عندئذٍ أصبح كل شيءٍ جاهزًا لـ محاولة الهروب الثانية — وكانت، في تقديري، أدقّ وأذكى عملية هروبٍ خطّطتُ لها في حياتي. اتفق رئيس الحرس، بدافع الانتقام من الأمير، على أن يتغاضى عن هروبنا، شريطة ألا نتحرّك في وضح النهار لأن بعض أفراد الحامية ما زالوا موالين للأمير. وهنا جاء دور قبطان الدهو، الذي كان يعرف الشعاب المرجانية كراحة يده، وتعهد بأن يقودنا عبرها ليلًا.
ذلك الليل الأخير سيبقى محفورًا في ذاكرتي ما حييت...

[8] في تلك الفترة (1928–1931)، كانت الليث تخضع لحكم الملك عبدالعزيز آل سعود "رحمه الله" وقد انتهى عهد القراصنة وزالت أي سلطة أخرى في بحر الحجاز سوى سلطة الدولة السعودية.

كان ذلك الوقت الوحيد الذي رأيت فيه العرب يتخلون عن كل قيودهم. كنا على متن دهوٍ كبيرةٍ ضخمة وبطيئة الحركة، نحن الثلاثة المتآمرون، وطاقم الدهو كله — جماعةً همجيةً ومهيبة في آن واحد.

أُحضرت الطبول، وطوال الليل غنّينا ورقصنا على إيقاعاتٍ غريبة، نحتسي مشروبًا عطريًا غريب الطعم. وكان أفراد الطاقم يرقصون بشكل غريب حتى القبطان الضخم شاركنا، وقد خلّع كل شيء إلا حزامة وإزاره الضيق، وأدى رقصة السيف على جسده البدين. كان المشهد شبيهًا بما شاهدته في المكلأ، لكن هذه المرة كان السلاح الذي في جيبي مجرد تدبير احترازي غير ضروري.
شعرتُ حتى بالحرج من أنني جلبتها، إذ أن هؤلاء القراصنة الطيبين قد قبلوني كأحدهم.
بدأ الفجر يلوّن السماء بخيوطٍ أولية، حين رفع الشراع الكبير للدهو، فودّعت أصدقائي الجدد. أبحروا على نسيمٍ صحراوي لطيف، وتبعناهم نحن في سفاب، نلتف وندور في مسارٍ متعرّج بين الشعاب المرجانية المخفية.

كانت الشمس تشرق حين تجاوزنا الشعاب الخارجية، فتوجهنا شمالًا، بينما انعطفت الدهو جنوبًا.

وجاءتنا وداعٌ أخير يطفو عبر المياه البنفسجية من البحار العربي الضخم طيب القلب قائلا:
> «سلام، أمريكا، سلام!»

المؤلف مع عرب الليث1930_1931

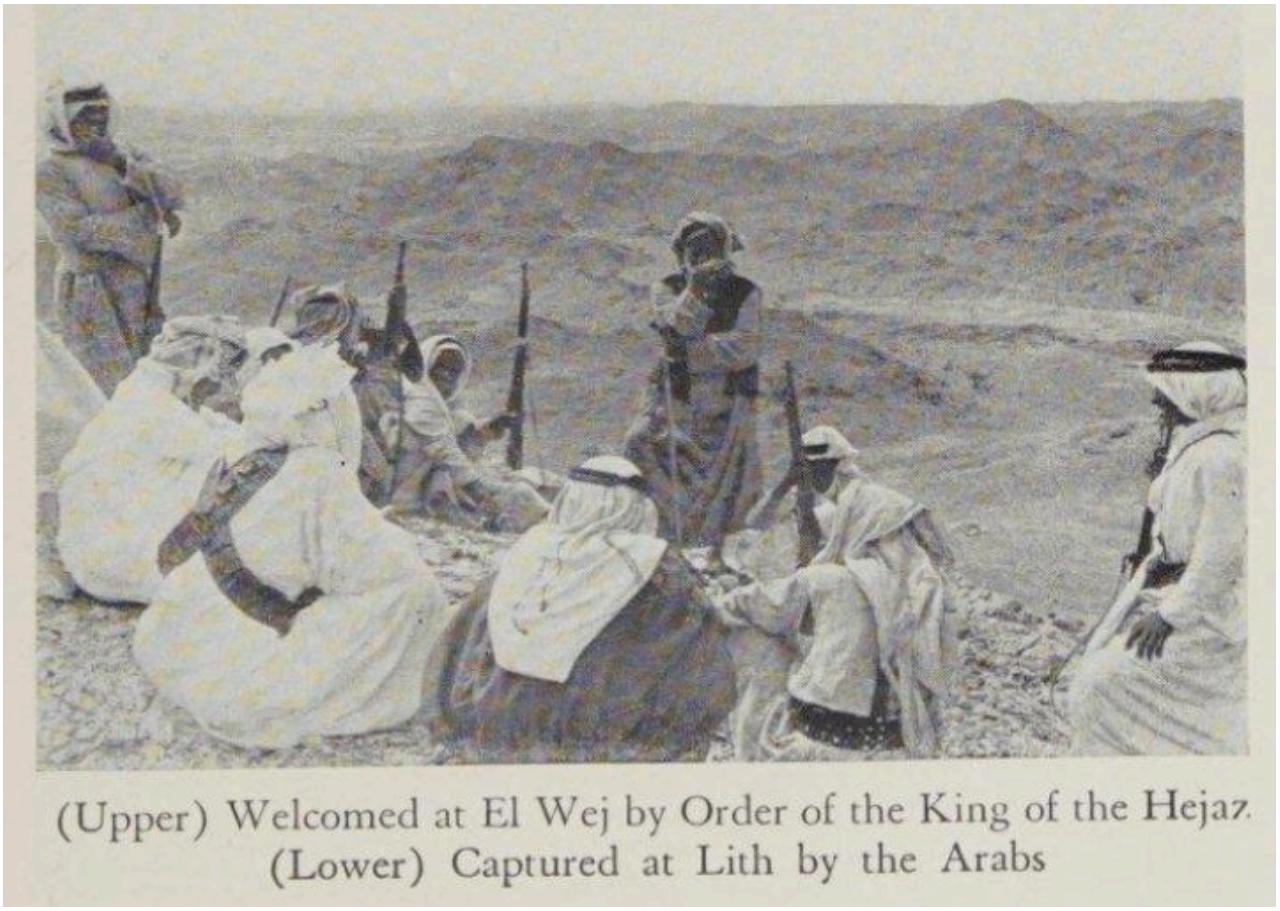

(Upper) Welcomed at El Wej by Order of the King of the Hejaz.
(Lower) Captured at Lith by the Arabs